صفات عباد الرحمن

٦ ــ التوحيد

● الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن ومع عباد الرحمن، ومن منّا لا يحب أن يكون عبداً من عباد الرحمن؟ من منّا لا يحبّ أن ينتمي إلى هذه الفئة الصالحة الصادقة، التي رضيت عن الله تعالى ورضي الله عنها، وجعل جزاءها الجنّة ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وسجّل ذكرها في كتابه، وذكرهم بهذه الأوصاف الكريمة، وهذه السّمات الجليلة، وهذه الأخلاق الجميلة؟.

فبيّن الله تعالى من أول الأمر حالهم في أنفسهم، حال التواضع والسكينة: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وحالهم مع النّاس وبخاصّة أولئك السفهاء والجاهلون: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وحالهم مع ربّهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٤ ـ ٦٦]، ثمّ ذكر حالهم في أموالهم، فهم فيها متوسّطون معتدلون، شأنهم شأنهم في كل أمورهم وفي كلّ حياتهم، منهجهم الوسط، وطريقهم الاعتدال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ [البقرة: ١٤٣].

هكذا ذكرهم الله تعالى بتلك الصفات الإيجابيّة، ولكنّ الدين أمر ونهي،

obeikandl.com

فإذاً كان هذا حالهم مع أوامر الله تعالى وتوجيهات الدين، فما هي حالهم مع ما نهى الله تعالى عنه؟

هذا ما ذكرته هذه الآية الكريمة التي نقف عند الفقرة الأولى منها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]. إنّ سيرتهم غير سيرة المشركين، المشركون يعبدون مع الله آلهة شتّى، اتخذوها أرباباً من دون الله أو مع الله، والمشركون لا يتورّعون عن سفك الدماء وقتل الأنفس، والمشركون لا يتورّعون عن هتك الأعراض وسفح الشهوات، ولكن عباد الرحمن تورّعوا عن هذا كلّه.

فأوّل ما اتصفوا به هو التوحيد، ولهذا «لا يدعون مع الله إلهاً آخر»: لا يتجهون إلى غير الله بالدعاء، و«الدعاء مخّ العبادة»[1] بل الدعاء هو العبادة.

روى الترمذيّ أن النبي ﷺ قال: **«الدعاء هو العبادة»**[2] **وقرأ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، فوضع كلمة (الدعاء) موضع كلمة (العبادة) وكلمة (العبادة) موضع كلمة (الدعاء).

فـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا يعبدون إلاّ الله، ولا يقدّسون غير الله، ولا يبتهلون إلى غير الله، ولا يسجدون لغير الله، ولا ينحنون لغير الله، إلههم (الله) وحده.

---

(١) رواه الترمذي عن أنس بن مالك، ثمّ قال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلاّ من حديث ابن لهيعة (صحيح الترمذي، أبواب الدعوات: باب ما جاء في فضل الدعاء).

(٢) ورواه مسلم والطبراني وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن النعمان بن بشير، وقال الترمذي: حسن صحيح (كشف الخفاء للعجلوني: ١/٤٠٣ برقم ١٢٩٥).

قد أفردوا الله وحده بالعبادة وبالاستعانة، فهموا سرّ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي: لا نعبد إلاّ إياك ولا نستعين إلاّ بك: «... إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله..»(1)، وكما قال الله تعالى على لسان شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

إن تفرد الله بالعبادة والإنابة، وبالتوكل والاستعانة: هذه هي حقيقة التوحيد.

والتوحيد نوعان: توحيد الربوبيّة، وتوحيد الألوهيّة.

توحيد الربوبيّة: أن تعتقد أنّه لا ربّ غير الله، ولا خالق ولا رازق غير الله، فهو خالق السموات والأرض ومالكهما.

وهذا النوع من التوحيد قد اعترف به المشركون، كانت قريش ومشركو العرب يعترفون بأنّ الله ربّ السموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس: ٣١].

ومع هذا الاعتراف أشركوا مع الله آلهة أخرى، عبدوا الأحجار وعبدوا الأوثان والأصنام، ومن الناس من عبد الشمس ومن عبد القمر، ومنهم ومنهم.

ومن هنا قالوا: إنّ توحيد الربوبيّة لا يغني عن التوحيد الآخر: توحيد الألوهيّة.

توحيد الألوهية: أن لا تؤلّه غير الله، ولا تتجه بالدعاء والعبادة

---

(1) قطعة من حديث ابن عباس، الذي رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وسيأتي نصّه كاملاً في صفحة (٩٢).

والاستغاثة والرجاء والخوف إلاّ إلى الله وحده.

وهذا هو التوحيد الذي أنزل الله به كتبه، وبعث به رسله، ليدعوا إليه أقوامهم، فإنّ الذي أضل البشريّة ليس هو الجحود والإلحاد، بل هو الشرك والوثنيّة.

ولهذا كان النّداء الأول في رسالات الرسل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، وكان التوحيد هو القاسم المشترك بين رسل الله جميعاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

كان المشركون يعتقدون أنّ الله خالق كلّ شيء ويعبدون غيره، ويقولون عن آلهتهم المزعومة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ، فجاء الإسلام ليحرّر هؤلاء من عبادة غير الله، سواء كان هذا الغير حجراً أو بشراً، أو جنّا أو مَلَكاً، أو حيواناً أو نجماً، أو شمساً أو قمراً، أو جماداً أو أيّ شيء.

كان النبي ﷺ يختم رسائل إلى ملوك الأرض - إلى قيصر.. إلى أمراء النصارى.. إلى المقوقس.. إلى النجاشي.. إلى غير هؤلاء من أهل الكتاب - بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

إنّ الذي أفسد الحياة، وأفسد المجتمعات، هو: دخول الشرك عليها، واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فإنّهم لم يعبدوا الحجر فقط بل عبدوا البشر.

كان هناك مثل (النمروذ) الذي قال: أنا أحيي وأميت[1]، فقد حكم على رجل بالإعدام ثمّ أعدمه، وحكم على آخر بالإعدام ثمّ عفا عنه، أنذا أحيي وأميت!

و(فرعون) الذي ادعّى الألوهيّة، وقال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] . ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] .

وهناك كثيرون ادّعوا لأنفسهم أو ادُّعي لهم أنّهم آلهة أو أرباب من دون الله، وقد لا يدّعون ذلك بألفاظهم ولكن أعمالهم تنبىء عنهم، وتصرّفاتهم تعبّر عن هذا التأليه الكامل، فهم يريدون أن يذلّوا عباد الله، وأن يصبح النّاس لهم عبيداً، يأمرونهم فيطيعون، ويشيرون إليهم فيسمعون، ويشرّعون لهم فينفّذون، ويحلّون لهم الحرام أو يحرّمون عليهم الحلال فيستجيبون!

لا يقولون: لم، ولا يقولون: لا، يحرّمون عليهم ما شاؤوا ويحلّون لهم ما شاؤوا!

دخل عدي بن حاتم ـ وكان قد تنصر في الجاهليّة ـ على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١] ، فقال إنّهم لم يعبدوهم، قال: «بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم»[2].

هذا نوع من العبادة: أن تتخذ أناساً مشرّعين، يشرّعون لك ما شاؤوا،

---

(١) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة التوبة، من رواية الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير، من طرق، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه (٢/٣٤٨ ـ ٣٤٩)، طبعة الحلبي.

يحلّون ويحرّمون، اغتصبوا سلطة الإلهية!

هناك أنواع شتّى من الربوبيّة تظاهر بها النّاس في مختلف القرون وعلى مر العصور، ودان الناس لهم وأطاعوهم، فانقسموا قسمين: آلهة وعبيد، آلهة يفعلون ما يشاؤون، ويحكمون بما يريدون، ولا يُسألون عمّا يفعلون، وعبيد ليس لهم إلاّ السمع والطاعة.

جاء الإسلام يحرّر الناس من هذا كلّه، يحرّر النفوس من الشرك، يحرّرها بالتوحيد، يحررها بـ (لا إله إلا الله) هذه الكلمة كانت إيذاناً بحياة جديدة، ومجتمع جديد، كانت إعلاناً لحريّة البشر ولحقوق الإنسان.

بهذه الكلمات يجب أن ترتفع الحياة، وأن تتحرّر النفوس، وأن ترتفع الرؤوس، ولا تنحني إلا لله في ركوع أو سجود.

كان التوحيد تحريراً حقيقياً للبشريّة.

ولم يسمح النّبيّ ﷺ بأيّ نوع من أنواع الشرك، سواء كان أكبر أو أصغر.

هناك الشرك الأكبر وهو نوعان: ظاهر جليّ كاتخاذ آلهة مع الله، وباطن خفيّ كدعاء الموتى والمقبورين والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم.

وهناك الشرك الأصغر: كالتبّرك بالشجر أو بالحجر، وكالحلف بغير الله تعالى، كأن تقسم بالنّبيّ ﷺ أو بالكعبة أو بالشيخ الفلاني أو بالوليّ الفلاني، وقد قال النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك**»[(١)]، **لا تحلف إلاّ بالله**: «**... من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه، وابن حبّان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٧١ ـ ٧٧٢ برقم ١٧٩٢).

(٢) رواه مالك، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأوّله: «إنّ الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم...».

obeikandi.com

ومن الشرك الأصغر أن تقول: **لولا فلان لحصل كذا وكذا**، فالمسلم ينبغي أن يتحرّز في ألفاظه ويقول: لولا الله ثمّ فلان لكان كذا وكذا.

قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندًا؟ قل: ما شاء الله وحده**»(١). وفي حديث آخر: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثمّ ما شاء فلان**»(٢).

لا ينبغي أن يُقال: باسم الله واسم فلان، لأنّ ظاهرة هذه الألفاظ جعل (فلان) هذا كأنّه شريك مع الله، كأنه ندٌّ لله تبارك وتعالى.

أراد النّبيّ ﷺ أن يحرّر الإنسان المسلم فلا يتجه إلاّ إلى الله وحده.

حتى الغلوّ في شخصه ﷺ نهى النّاس عنه، ما كان يجب أن يغلو الناس فيه، وقال: «**لا تُطرُوني كما أَطْرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(٣). **ومن هنا نقول في التشهد: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.**

ولهذا وصفه الله بالعبوديّة في أسمى المقامات: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، [الإسراء: ١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ [النجم: ١٠].

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده صحيح، ورواه أيضاً النّسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨) بلفظ «أجعلتني لله عدلاً» انظر (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط ص٥٠٥) و(زاد المعاد بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط: ٢/ ٣٥٣).

(٢) رواه أبو داود، وأحمد، من حديث حذيفة، وإسناده صحيح (زاد المعاد: ٢/ ٣٥٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، من حديث عمر رضي الله عنه (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٣/ ٢٤٦ برقم ٣٦٨١) والإطراء: مجاوزة الحدّ في المدح والكذب فيه.

وهذا هو ما يفتخر به ﷺ، أنه عبدٌ لله.

لم يسمح لأحد أن يغلو فيه، ولّما جاء بعض النّاس وقالوا له: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، قال: **«يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينّكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحبّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجل»**[1].

ومن الشرك الأصغر: النّذر لغير الله[2]، والذبح لغير الله[3]، والرّقى[4]، والتمائم[5]، والتولّة[6]، ....

---

(١) رواه النّسائي عن أنس رضي الله بسند جيّد (حقيقة التوحيد للقرضاوي) ص ٦٣٠ وانظر (عمل اليوم والليلة بتحقيق فاروق حمادة، الأحاديث: ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩).

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: ٢٧٠]. وفي الحديث: «من نَذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه» رواه البخاري وغيره.

(٣) قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]. والنسك: الذبح بقصد التقرّب، وفي الحديث عن عليّ رضي الله عنه: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات ـ وذكر أوّلها ـ: «لعن الله من ذبح لغير الله» رواه مسلم.

(٤) التي تسمّى (العزائم) وهي عبارة عن كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهليّة معتقدين أنّها تدفع عنهم الآفات، مستعينين بالجنّ أو مردّدين بعض الألفاظ الأعجميّة أو غير المفهومة، فجاء الإسلام فأبطل ذلك، إلاّ ما ذُكر فيه أسماء الله وصفاته وآياته والمأثور عن النبي ﷺ فهذا حسن.

(٥) جمع تميمة، وهي خرزات كان العرب يعلّقونها وخاصّة على الأولاد زاعمين أنّها تدفع عنهم الجنّ أو تقيهم من العين ونحوها، فأبطلها الإسلام، ومن هذه التمائم ما يسمّى (الجامعة) أو (الحرز) أو (الحجاب) أو ما شابه ذلك، فكلّ ذلك من كبائر المنكرات، لكن إذا كان المعلّق من القرآن فرخّص فيه بعض السلف، وانظر: كتاب الشيخ القرضاوي: «موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن الكهانة والتمائم والرقى» نشرته مكتبة وهبة.

(٦) شيء يصنعونه يزعمون أنّه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته، وهي ضرب من =

openkanal.com

وغير ذلك[1].

كلّ هذه ضروب من الشرك لا ينبغي للمسلم أن يقع فيها، وقد حذّرنا النبيّ ﷺ منها.

جاء الإسلام يدعو إلى التوحيد، وإلى التحرّر من الشرك أكبره وأصغره، وجليّه وخفيّه، وذلك ليكوّن الشخصيّة المتزنة.. الشخصيّة السوّية.. الشخصية التي لا ترجو إلاّ الله ولا تخاف إلاّ الله.

المشرك يخاف من كلّ شيء ويخاف على كلّ شيء، والمؤمن الذي وحّد الله تعالى لا يخاف من شيء، سدّ منافذ الخوف كلّها، فلم يعد يخاف إلاّ ربّه، حتى الموت لا يخاف منه، لأنّه يعلم أنّ بعد الموت حياة أخرى يلقى فيها ربّه، ويخلّد فيها في عمله، ولا يخاف على الرزق ولا يخاف على الأجل، لأن الرزق مضمون والأجل محدود: ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ومن هنا كان التوحيد مصدر الأمان النفسيّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي: لهم الأمن في الدنيا والاهتداء، ولهم في الآخرة كذلك.

على حين قال الله تعالى عن المشركين: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: ١٥١].

التوحيد تحرير للنفس، فلا تذلّ لغير الله، ولا تعتز إلا بالله وحده. ﴿وَلِلَّهِ

= السحر، وفي حديث ابن مسعود: «إنّ الرّقى والتمائم والتّولة شرك» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، والحاكم وصحّحه، ووافقه الذهبي (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد بتحقيق الأرناؤوط) ص١٣٣.

(١) هناك ألوان أخرى من الشرك الأصغر ذكرها الأستاذ القرضاوي في رسالته الوجيزة النافعة: «حقيقة التوحيد» التي نشرتها مكتبة وهبة بالقاهرة.

﴿ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] .

التوحيد سموّ بالإنسان، وارتفاع به عن حضيض الأرض إلى الأفق الأعلى، أمّا الشرك فهو انحطاط بالإنسان، ينحطّ الإنسان ليعبد إنساناً مثله، أو ليعبد أشياء سُخرّت من أجله، يعبد أشياء لا تضرّ ولا تنفع، يعبد أشياء لا تُبصر ولا تسمع، يعبد أشياء لا تعي ولا تعقل.

انظروا إلى ذلك الذي ينحت الحجر بيده ثمّ يتوجّه إليه راجياً خائفاً خاشعاًمتضرّعاً! كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦] .

انظروا إلى ذلك الذي يعبد الحيوان الذي سُخّر لمنفعته، ويقدّس الأنعام التي تخدمه وهي صحيحة، ويأكلها وهي ذبيحة!

كنت في الأسبوع الماضي في الهند، فرأيتهم كيف يقدّسون الأبقار التي لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها ـ ضرًا أو نفعاً أو موتاً أو حياة.

والعجيب أنّهم يُؤلّهون البقرة ولا يُؤلّهون الجاموسة، والجاموسة أنفع منها، وأكثر لبناً، ويُؤلّهون الأنثى ولا يُؤلّهون الذكر، الأنثى تُقدّس وتُعبَد، والثور يُضرب ويُهان ويُستخدم في حمل الأثقال وغير ذلك.

ما الذي جعل هذه إلهاً وذلك ليس بإله؟! وما الذي جعل البقرة إلهاً والجاموسة ليست بإله؟! شيء عجيب!!

هناك وجدنا من يعبد الثعابين، ومن يعبد النّمل، ومن يعبد الشيطان، وهناك من يعبد الفرج، ومن يعبد الحشرات!!

الشرك أذلّ الإنسان وانحطّ به، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] .

والشرك وكرٌ للخرافات ومباءة للأضاليل، يجعل الإنسان أسير الأوهام، ويصبح زمامه بيد أولئك الكهّان الذين يبيعون فيه ويشترون، ويسوقونه أو يقودونه كما تُساق أو تُقاد الأنعام.

أولئك الكهنة وسدنة الأصنام وخدمتها، يتحكّمون في أولئك الناس، إذا قالوا لهم شيئاً سمعوا وأطاعوا، وهذا هو الشرك، وهذه هي العبوديّة، عبوديّة الإنسان للإنسان!

جاء الإسلام ليحرّر الإنسان من هذا الوهم، ويجعله مع الله مباشرة، ليست هناك وساطة بين الله وعباده، ليس هناك سماسرة محتكرون لهذه الوساطة، تستطيع أن تقرع باب ربّك في أيّ وقت وتدعوه بما تشاء، فيقول لك: لبيك وسعديك، تستطيع أن تصليّ في أيّ بقعة من الأرض:

و«جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[1]، تستطيع أن تؤدّي عبادتك وأنت متحررٌ من رقّ الكهنوت.

جاء الإسلام ليحررّنا من العبوديّة لغير الله تبارَك وتعالى، وهذه مزيّة عباد الرحمن، أنّهم: «لا يدعون مع الله إلهاً آخر» أيّا كان هذا الإله، تحرّروا من كل الوثنيات: الوثنيّة الدينيّة، والوثنيّة الاقتصاديّة، والوثنيّة الاجتماعيّة.

أ ـ الوثنيّة الدينية: اتخاذ آلهة أخرى، سواء كانت وثنيّة كبرى أو وثنيّة صغرى، وثنيّة ملحوظة أو وثنيّة غير ملحوظة.

---

(١) قطعة من حديث جابر المتفق عليه، ورواه أيضاً النّسائي، ونصّه: «أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة وبُعثت إلى الناس عامّة»: (الجامع الصغير للسيوطي: ١/٤٦ ـ ٤٧) وشرحه: (فيض القدير للمناوي: ١/٥٦٦ ـ ٥٦٨ برقم ١١٧٤).

قد يقول بعض الناس: نحن لا نعبد هؤلاء، ولكن إذا كانت تتوجّه إلى صاحب الضريح وتستغيثه وتبتهل إليه، وتخاف منه أكثر مما تخاف الله[١]، فهذا من الوثنيّة.

لا يجوز للمسلم أن يستغيث بوليّ أو صاحب ضريح، إنما عليه ـ إن كان مسلماً ـ إذا زار قبراً من هذه القبور أن يقول: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»[٢]، فهو يدعو لهم وليس يدعوهم، هذا منطق الإسلام.

أمّا أن تدعوهم وأنت لا تعرف إن كانوا من أهل الجنّة أم من أهل النار، لأنك لا تدري شيئاً عن خواتيم العباد، لا يستطيع إنسان أن يجزم أنّ صاحب هذا القبر قد خُتم له بالإيمان، وهو في الجنّة.

ولّما مات عثمان بن مظعون ـ وهو من السابقين الأوّلين الذين دخلوا في الإسلام وأوذوا في سبيله وهاجروا من أجله ـ قالت أمّ العلاء الأنصاريّة: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: **«مَن هذه المتألية على الله تعالى؟ وما يدريك أنّ الله أكرمه؟ والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي؟» قالت: فوالله لا أزكّي بعده أحداً أبداً**[٣].

فلم يرض النبيّ ﷺ أن تقول الصحابيّة: (فشهادتي عليك: لقد

(١) بعض الناس يُقسم بالله كاذباً ويخشى أن يقسم بالشيخ أو بالولي!!

(٢) حديث صحيح، أخرجه مسلم في كتاب (الجنائز) باب (ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها). انظر: (صحيح مسلم بشرح النووي ٧/ ٤٥) ط. دار الفكر.

(٣) رواه البخاري في صحيحه عن أمّ العلاء الأنصاريّة في عدّة مواضع: في الجنائز والشهادات، وفضائل الصحابة والتعبير، وهو مع قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدى ما يفعل بي ولا بكم..﴾ (٩)، وهذا قبل أن تنزل سورة الفتح وفيها: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر..﴾ (٢) فالأحقاف مكية، والفتح مدنيّة باتفاق.

أكرمك الله) بهذا الجزم، لأنّها صيغة قسم، ومن أين تعلم أن هذا قد خُتم له بالجنّة؟ العشرة المبشّرون بالجنة ـ وأمثالهم ـ هم الذين نشهد لهم بالجنّة، وما عدا ذلك فكلّ إنسان مصيره إلى الله.

ثم لماذا تطلب من غيرك وهو مثلك، عبد ومخلوق؟! هل يسأل (الشحّاتُ) (الشحّاتَ)؟!

اسأل صاحب الخلق والأمر، اسأل صاحب الخزائن التي لا تنفد: «.. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله..»(١).

ب ـ **الوثنيّة الاقتصاديّة**: عبادة المال، عبادة الدينار والدرهم، كما جاء في حديث البخاري: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة»(٢) وزاد في رواية: «وعبد القطيفة»(٣).

هناك أناسٌ أشركوا مع الله المال، فهم يلهثون وراءه، يستحلّون من أجله

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ونصّه كاملاً: قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إنّي أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجَفت الصحف» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وهو الحديث التاسع عشر من الأربعين النوويّة.

(٢) بفتح الخاء: ثوب مُعَلّم من خزّ أو صوف.

(٣) هي كساء له خمل يجعل دثاراً، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وتتمته: «إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبّرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يُؤذن له، وإن شفع لم يُشفّع». وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٣٦٨ ـ ٣٦٩ برقم ٦٥٨).

كلّ حرام، ويرتكبون كل موبقة، هؤلاء عبيد المال.

ج ـ **الوثنية الاجتماعية (أو الوثنية السياسية)**: إذا كان هناك من يعبدون القبور، فهناك من يعبدون القصور، شرك العوام تأليه الأموات، وشرك الخواص تأليه الأحياء! طاعتهم طاعة مطلقة، إعطاؤهم حقوق الألوهيّة من التعظيم والتقديس والخوف والرجاء.

وكلّ ذلك وثنيّة.

إذا كنت عبداً لله حقاً فلا تؤلّه غير الله، ولا تلتفت بقلبك إلاّ إلى الله، لا يملك أحد لك ضرًّا ولا نفعاً، ولا حياة ولا موتاً، ولا يستطيع مخلوق أن يقدّم لك أجلاً، أو ينقص لك رزقاً: «.. واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف»[1].

التوحيد الحقيقي يجعل من المسلم شخصية قويّة، تقف عند الحقّ، وتتشبّث به، وتجادل دونه، وتدافع عنه، وتبذل من أجله المال والنفس والنفيس، والغالي والرخيص، وهذا هو الذي تقوم به النهضات، وتنتصر به الرسالات، ويرتفع به شأن الأمم.

المؤمنون الموحّدون الأقوياء هم الذين أخلصت قلوبهم لله، وتحرّرت له، فلم يعد هناك أرباب أخرى، كما قال يوسف عليه السلام لأصحابه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩] أتعبد عدداً من الآلهة أم إلهاً واحداً قهّاراً؟!

الذين يعبدون الآلهة المختلفة تتوزّع قلوبهم رغبات مختلفة، وأهواء مختلفة،

(١) جزء من حديث ابن عباس السابق: «يا غلام إنّي أعلمك كلمات...».

لا يدري أيّهم يُرضي وأيّهم يُسخط، كما ضرب القرآن لنا مثلاً: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [الزمر: ٢٩].

إنه مثل واضح: عبد له سيد واحد عرف ما يرضيه وما يسخطه فلزم رضاه ففاز بقربه ومحبته وعبد له أسياد مختلفون وهم شركاء متشاكسون، هذا يأمره أن... يذهب إلى الشرق وهذا إلى الغرب، فلا يدري من يُرضي ومن يُسخط، ومن يطيع ومن يعصي.

هذا فرق ما بين الموحّد والمشرك، ما بين المؤمن وغير المؤمن، ما بين عبد الرحمن وعبد غير الرحمن.

عباد الرحمن حرّروا أنفسهم من كل آلهة سوى الله، فلا يدعون مع الله إلهاً آخر، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم، وهكذا ينبغي أن نكون نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من الذين أخلصهم الله لدينه، وأخلصوا دينهم لله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد:

ورد في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له، ولعلّها تكون هذه الساعة.

اللهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهمّ استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا.

اللهمّ أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

obeikandl.com

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] .

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] .

اللّهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين، اللّهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

اللّهمّ عليك بأعدائك أعداء الإسلام أيًا كانوا، اللّهمّ ردّ عن المسلمين كيدهم، وفلّ حدّهم، وأذهب عن أرض المسلمين سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

عباد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

وأقم الصلاة.

obeikandl.com